مذكرات

يدُ سُهيْلة: حين صدر العددُ الأوّل!

من يوميّات سهيل إدريس غير المنشورة

كان سهيل إدريس يمنّي النفسَ بإصدار الجزء الثاني من مذكّراته بعنوان: ذكريات الأدب... والحبّ. لكنّ العلاج الذي أُخضعتْ له كلْيتاه طوال عامين لم يسعفْه على مراجعة ما كتب وعلى إنهائه. هنا صفحاتٌ من ذلك «الكتاب» الذي لم ينتهِ، وهي تتناول ذكريات إدريس عن العدد الأوّل من مجلة الآداب.

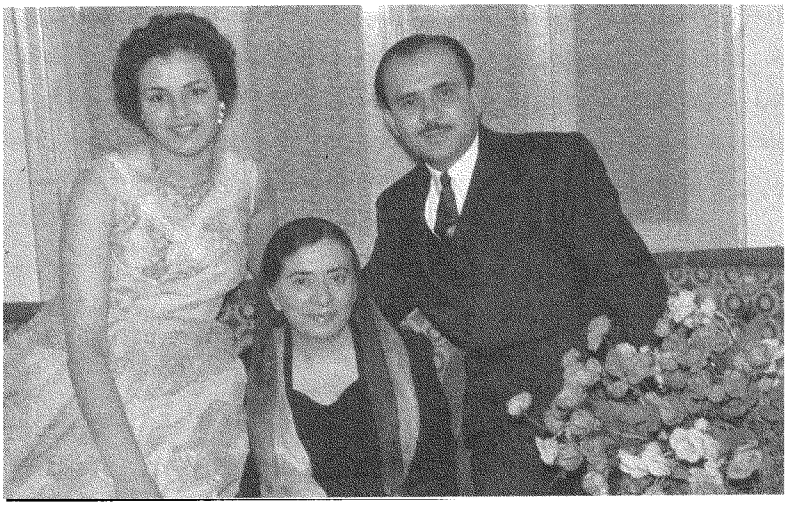

سهيْلة بين العريس والعروس

عيْناب، ١٩٥٢/٩/٢٧

منذ أيّام، وأنا في فرحةٍ غامرة. ذلك أنّ المادّة التي بين يديَّ تغطّي، في تقديري، أكثرَ من ثلاثة أعداد من المجلّة. وأنا أنتظر بعدُ كثيرًا من الدراسات والقصائد والقصص التي وعدني الأدباءُ العربُ بموافاتي بها للعدد الأوّل. والحقّ أنّني الآن في «ربكة الاختيار» كما يقول الفرنسيّون.

ولكنّ القلق الذي ينتابني، منذ أن تركتُ مكتبي في «دار العلم للملايين» أمس الأوّل، كان يمتُّ إلى تسديد نصيبي في رأس مال الشركة. فلقد طالبني شريكايَ ـ مرّةً أخرى ـ بدفع المبلغ إلى الصندوق المشترك حتى يتسنّى شراءُ الورق وتصفيفُ الموادّ. وطلبتُ تأجيلَ الدفع بضعةَ أيّامٍ أخرى لأنّني لم أتمكّنْ بعدُ من جمع المبلغ المطلوب. وكنتُ أنتظر أن تصلَني تعويضاتُ بعض الأحاديث التي أُذيعتْ لي من الإذاعة اللبنانيّة ومن محطّة الشرق الأدنى لأضيفَها إلى ما كنتُ قد وفّرتُه من بعض هدايا ماليّةٍ قدّمها لي أقرباءُ بمناسبة حصولي على الدكتوراه.

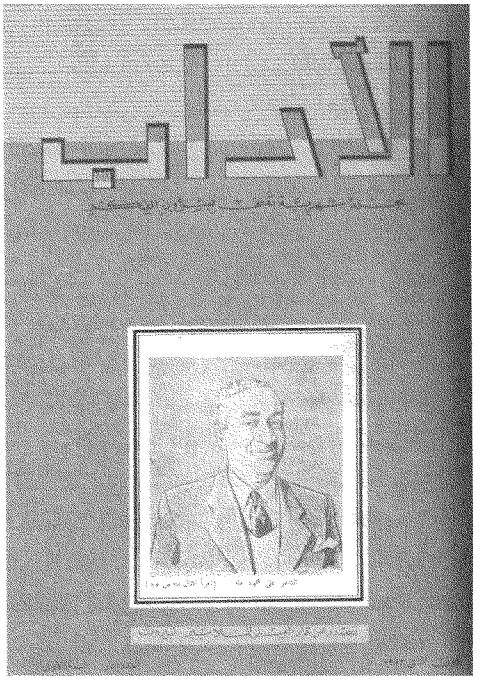

غلاف العدد الأول من الآداب كانون الأول ١٩٥٣

كنتُ واقفًا على شرفة منزلنا الصغير (الذي كان يَمْلكه أخوالي في عيْناب وكانوا يدعوننا إلى قضاء الصيف فيه) أتطلّع إلى مياه المتوسّط البعيدة، حين أحسستُ بيدٍ على كتفي. قلتُ في نفسي، دون أن أرفَعَ بصري، إنّها، لا ريْبَ، يدُها هي، تلك التي تمتدّ إليّ دائمًا حين أحتاجُ إليها: يدُ أمّي سهيْلة.

قالت ما كنتُ أنتظر أن تقولَه:

ـ أراكَ قلقًا. أهناك عراقيلُ تَعترض المجلّة؟

كانت أمّي معنيّةً بكلّ أمرٍ من أموري. كنتُ أحسُّ بأنّ حبَّها لي يفوق حبَّها لإخوتي جميعًا. أيكونُ ذلك لأنّي حصّلتُ في الدراسة، على تقطُّعها، ما لم

يبلغْه أحدٌ منهم، وأنّي حقّقتُ بذلك حلمًا لها بأن تَمْضي في دراستها حتّى تبلغَ المرحلةَ الجامعيّة، فحال دون ذلك زواجُها المبكّرُ بأبي؟

لقد رَعَتْ أمّي خطواتي المبكّرةَ في الكتابة، كما رَعَتْ خطواتي المتعثّرةَ في الطفولة. كنتُ أقرأُ لها كلَّ ما أكتبُه، فتشجّعني على الاستمرار، ولا تضنّ عليّ أحيانًا بالتعبير عن إعجابها. ومع الزمن، جعلتُ أُحِسّ بأنّ أمومتها كانت تزدوج بالصداقة. وهكذا أصبحتْ أمّي سهيْلة صديقتي كذلك.

لم يدهشْني أن تطرَح سؤالَها الثاني قبل أن أُجيب على الأوّل:

ـ لم تجْمَعْ بعدُ نصيبَكَ في رأس مال المجلّة، أليس كذلك؟

وحين لم أجب، مدّت إليَّ يدَها:

ـ هذا هو السوارُ الثاني. بِعْهُ وسدِّدْ ما عليكَ.

حين كنتُ أعانقها، وأنا أرتعش، تذكّرتُ السوارَ الذهبيّ الأوّل الذي أعطتني إيّاه منذ ثلاثة أعوام، قبل سفري إلى باريس، وأوصتني بأن أحتفظَ بثمنه، «لحين الحاجة» قالت، «وأنتَ في الغربة.»

مرّتين اثنتين، أحسستُ بالحاجة ـ الشديدة ـ وأنا في الغربة: أُولاهما حين تأخّر وصولُ قسطٍ من المنحتيْن المخصّصتيْن لي في بيروت، وظلّت مديرةُ الفندق، الذي أسكن غرفةً صغيرةً على سطحه تجاه البانتيون في باريس، تطالبني بأجرة الأشهر الستة التالية، بعد انقضاء أسبوعين على انتهاء الستّة الأولى المدفوعة الأجرة، فدفعتُ لها ثمنَ السوار الذهبيّ الأوّل.

والمرّة الأخرى، هي تلك التي كنتُ أعاني فيها ضيقًا شديدًا في باريس، بسبب نفاد مصروفي قبل الأوان وامتناعي عن الاقتراض من أصدقائي. ففوجئتُ ذاتَ صباح برسالةٍ في علبة غرفتي بالفندق، كانت فيها دعوةٌ من المصرف لقبض حوالةٍ وَردتْ باسمي من بيروت. وأعلمني المصرفُ أنّ المبلغ ـ الذي هبط عليَّ من السماء ـ كان من صديقي محمّد النقّاش. يا إلهي! كيف عرف محمّد أنّي أعاني؟ وحين أردتُ، لدى عودتي في أوّل ذلك الصيف، أن أردّ «الدَّيْنَ» إلى النقّاش، رفض رفضًا باتًّا وهو يقول: «لم يكن ذلك دَيْنًا، بل كان هديّةً صغيرةً منّي.»

سألتُ أمّي:

ـ أتذْكرين السوارَ الأوّل؟ إنّكِ تطوّقين عنقي أبدًا بأساوركِ!

قالت وهي تهزّ رأسَها باستسلام:

ـ انتهت الأساور. ستعتمد بعد الآن... على قلمك.

❖ ❖ ❖

بيروت، ١٩٥٢/١٢/٢٣

ظللتُ أنتظره حتى السادسة، ثمّ غادرتُ المكتبَ بعد أن تلفن لي مديرُ المطبعة ليخبرَني بأنّ العدد تأخّر في التجليد، وسيَحْمل إليَّ في البيت ثلاثَ نسخٍ منه فورَ صدوره.

حوالى الساعة الثامنة، دُقّ بابُ منزلي، فتناولتُ من مدير المطبعة رزمةَ النسخ الثلاث وأنا أشكُره، ثمّ دخلتُ غرفتي، وأغلقتُ خلفي البابَ.

جلستُ على الأريكة، متهيِّبًا أن أفتحَ الرزمة. ثمّ تمهّلتُ في فضّ ورقتها.

وبرز لي غلافُ العدد الأوّل من الآداب، وعليه صورةُ الشاعر علي محمود طه.

تناولتُ العددَ بيدٍ ترتجف.

أحسستُ دمعةً تغشى عينيّ. أتراني دخلتُ غرفتي وأغلقتُ خلفي البابَ حتّى لا يراني أحدٌ أبكي؟

بعد لحظات، دخلتْ هي الغرفة.

تناولتْ من على يميني عددًا منها. وجلستْ إلى يساري، وأَخذتْ تقلّبه.

ثمّ ضمّتني إلى صدرها وقالت بصوت مُخضلّ:

ـ مبروك!

ابتسمتُ وأنا أمسحُ دمعتي.

عن يساري، كانت أمّي سهيْلة. وعن يميني، ابنتي الآداب.